



منذ شهور ثمة مدینتان عربیتان فی الواجهة، كانتا من أهم وأجمل الحواضر، وأی تصفح عمق، أو حتى عاجل، يظهر تاریخهما الممعن فی القدم، وقد كان مشترکاً فی بعض الحقب قبل أن تصبha فی دولتين تفصل بینهما حدود رسمت قبل مئة عام، لكنهما أکملتا مسیرتهما الحیویتين، واستطاعتـا أن تبلورا تجربتين إنسانیتين متشابهـتين. ولم يكن متوقعاً أن تـیدـهما الظـروف إلـى أحـلـكـ الأـيـامـ، إلـى ما قـبـلـ التـارـیـخـ وـالـحـضـارـةـ، وـأـنـ تـسـتـبـدـ بـهـماـ أـكـثـرـ العـقـولـ تـخـلـفاـ فـیـ هـذـاـ العـصـرـ، فـتـحـاصـرـ حـلـبـ وـتـعـرـضـ لـلـجـوـيـعـ وـيـحـرـمـ أـهـلـهـاـ مـنـ أـبـسـطـ مـقـومـاتـ الـحـيـاـةـ، وـتـحـتـ المـوـصـلـ مـنـ جـمـاعـةـ ظـلـامـيـةـ فـتـخـضـعـ أـهـلـهـاـ بـالـتـرـهـيبـ وـتـطـبـقـ عـلـيـهـمـ أـعـتـىـ أـنـمـاطـ التـسـلـطـ، مـتـنـكـرـاـ بـالـإـسـلـامـ فـیـ أـكـثـرـ إـسـاءـاتـ اـنـحـاطـاـتـ بـالـإـسـلـامـ.

في أي مسار حضاري يعتد به تلعب المدن دوراً الأبرز، فيها تتماـزـجـ التنـوعـاتـ كـافـةـ، تـحـتـكـ الـأـفـكـارـ وـالـعـقـائـدـ فـيـ تـصـارـعـ وـتـقـارـبـ وـانـصـهـارـ، وـتـتـلـخـلـقـ التـقـافـاتـ وـالـتـعـاـيشـاتـ. قـلـيلـةـ هيـ المـدـنـ التيـ تـشـبـهـ حـلـبـ وـالـمـوـصـلـ، لـكـنـ مـعـظـمـهـاـ يـقـعـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ الـعـرـبـيـةـ، وـسـاـهـمـ فـيـ صـنـعـ رـوـحـ الشـرـقـ الـمـتـمـيـزـ، أـوـ الـذـيـ كـانـ. مـتـمـيـزـاـ بـتـعـاـيشـ أـبـنـاءـ الـأـدـيـانـ وـالـمـذاـهـبـ، وـلـعـهـ مـنـدـفـعـ بـتـهـورـ وـاسـتـهـتـارـ نـحـوـ أـفـوـلـهـ الـكـبـيرـ. حـلـبـ وـالـمـوـصـلـ كـانـتـ نـمـوذـجـيـنـ لـهـذـاـ التـعـاـيشـ.

لم تعد حلب التي نعرفها تـوـجـدـ إـلـاـ فـيـ الـكـتـبـ وـالـصـورـ الـقـيـمـةـ، فـيـ الـمـوـاـقـعـ الـإـلـكـتـرـوـنـيـةـ أـكـثـرـ مـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـصـادـفـ صـورـةـ لـكـنـيـسـةـ إـلـىـ جـانـبـ مـسـجـدـ فـيـ الشـارـعـ نـفـسـهـ، عـاـشـ أـكـرـادـ وـأـرـمـنـ مـعـ الـغـالـبـيـةـ الـعـرـبـيـةـ، وـعـاـشـ مـعـ الـمـسـلـمـيـنـ مـسـيـحـيـوـنـ فـيـ تـجـمـعـهـمـ الـكـبـيرـ الـثـانـيـ بـعـدـ بـيـرـوـتـ مـنـ السـرـيـانـ وـالـلـاتـيـنـ وـالـمـوـارـنـةـ وـالـكـاثـوـلـيـكـ وـالـأـرـثـوذـكـسـ وـالـكـلـدـانـيـنـ. وـفـيـ الـمـوـصـلـ، كـانـ أـكـرـادـ وـالـتـرـكـمانـ وـأـرـمـنـ إـلـىـ جـانـبـ الـعـرـبـ، وـفـيـمـاـ كـانـتـ نـيـنـوـيـ التـارـیـخـيـةـ الـمـرـكـزـ الـأـهـمـ لـتـجـمـعـ السـرـيـانـ وـكـنـائـسـهـمـ كـافـةـ، تـقـاسـمـ الـمـسـلـمـوـنـ مـعـ الـمـسـيـحـيـيـنـ وـالـصـابـئـيـنـ وـالـمـنـدـانـيـيـنـ وـالـأـيـزـيـديـيـنـ وـالـشـبـكـ الـمـوـرـوـثـاتـ وـتـقـلـيـاتـ الـعـصـورـ.

لم تـكـنـ هـذـهـ الـأـقـوـامـ لـتـوـاـصـلـ وـتـسـتـمـرـ فـيـ الـعـيـشـ مـعـ إـلـاـ بـفـضـلـ أـمـانـ اـجـتمـاعـيـ تـضـافـرـتـ جـهـودـ الـفـئـاتـ فـيـ صـنـعـهـ، أـكـثـرـ مـاـ كـانـ ثـمـرـةـ إـرـادـةـ سـيـاسـيـةـ دـاخـلـيـةـ أـوـ خـارـجـيـةـ، بلـ إـنـ مـاـ تـشـهـدـهـ حـلـبـ وـالـمـوـصـلـ هـوـ الـعـكـسـ، فالـصـرـاعـاتـ الـدـولـيـةـ وـالـإـقـلـيمـيـةـ وـظـفـتـ كـلـ مـاـ لـدـيـهاـ فـيـ التـكـالـبـ عـلـىـ الـعـمـرـانـ هـنـاـ وـهـنـاكـ، عـلـىـ كـلـ الرـمـوزـ الـتـيـ تـجـذـبـ أـبـنـاءـ الـأـدـيـانـ وـالـأـعـرـاقـ لـلـبـقـاءـ فـيـ أـرـضـهـمـ رـغـمـ إـكـراهـاتـ الـمـتـكـاثـرـةـ. وـلـوـ لـمـ يـكـنـ النـمـوذـجـانـ هـمـ الـمـسـتـهـدـفـانـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـمـطـافـ، لـمـ جـعـلـتـ قـبـلـةـ الـمـدـنـ الـعـرـاقـيـةـ

والسورية بؤراً للمواجهات القتالية التي تستقطب الآن القوتين العظميين، لتجرباً أحدث ما في الترسانات الروسية والأميركية من أدوات القتل والتدمير. وليس صدفة أن تكون قوتان إقليميتان، إسرائيل وإيران، مستفيدين وحيدتين في سعيهما إلى النفوذ والهيمنة على العرب. ولا هي صدفة أن يكون تنظيم «داعش» الذي ساهم الجميع في صنعه هو الذي يستخدمونها لتمرير مصالحهم.

منذ نشأت إسرائيل وهي تعتبر أن تعايش الأقوام والأديان في الشرق الخطر الأكبر عليها، فجعلت من اختراقه أحد أهدافها الاستراتيجية. حاولت زعزعة النموذج اللبناني ولم تتوصل إلى تحطيمه، وإنْ لم يعد كما كان. دعمت المشروع الانفصالي لأكراد العراق، وشجعت على ترجيح الحكم الأقلية في سوريا، ليبقى هذان البلدان في حال صراعات مشتعلة أو كامنة قبل أن تصبح متفجرة. وفي سعيها إلى الهيمنة استنسخت إيران الكثير من الوسائل الإسرائيلية، خصوصاً في التغيير الديموغرافي في العراق وسوريا. ولم يعترض الروس والأميركيون على هذه المشاريع بل يشاركون إدارتها ورعايتها.

العرب القطرية

المصادر: